

الإسلام وقضية التكفير

١٠ د عبد الخالق ابراهيم اسماعيل

وكيل الكلية ورئيس قسم الدعوة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله وخاتم المرسلين . سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد

فقبل أن نتناول موضوع « الإسلام وقضية التكفير » نقدم بين يدي البحث تعريفا موجزا للإسلام والايمان ثم نعرض لقضية التكفير من منظور إسلامي .

أولا : الإسلام

الإسلام : لغة تسليم الأمر لله . والطاعة . والانقياد له سبحانه يقال أسلم أمره الى الله أى سلم ، وأسلم دخل في السلم بفتحيتين وهو الاستسلام ، وأسلم من الإسلام .

والإسلام : شرعا يؤخذ من حديث رسول الله ﷺ المروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه والذي جاء به أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، وشديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبي ﷺ فأسند ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا » .

قال صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه (١) .

فالإسلام كما عرفه الرسول ﷺ : عبارة عن إقرار بالشهادتين وذلك إنما يكون بواسطة النطق باللسان لكل من ليس به عيب في النطق ، أما بالنسبة للآخرس وأشباهه من أصحاب اللعثة في النطق مثلاً فتكفى من هؤلاء الإشارة المفيدة بالإقرار بالشهادتين وإقام الصلاة المكتوبة وإيتاء الزكاة المفروضة ، وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام للمستطيع .

فمن فعل ذلك فهو مسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم .

ولا يجوز لأحد كائناً من كان أن يحكم عليه بأنه كافر ، وهذه القضية سوف نتناولها فيما بعد إن شاء الله وبهونه .

ويلاحظ أن تعريف الرسول ﷺ تعرض للأمور الظاهرة للناس . وهي النطق بالشهادتين ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، والحج وجميعها ظاهرة واضحة للعيان ، تسمع بالاذن وترى بالعين وتشاهد للخلق .

أما باطن المسلم وما يحويه فلم يتعرض له الرسول ﷺ ، وإنما الأمر فيه متروك إلى علام الغيوب جل شأنه فهو الذي يعلم ما تكنه الصدور وعلينا نحن المسلمين إجراء الأحكام على ظواهر الناس ولنا مطالبين بالبحث عن حقيقة بواطنهم ، فأمرهم الله رب العالمين .

هذا تعريف الإسلام بإيجاز شديد .

ثانياً : الإيمان

أما الإيمان لغة فهو التصديق وهو مأخوذ من الأمن كأن حقيقة قولنا « آمن به » أي أمنه التكذيب والمخالفة .

وهو يعدى باللام نحو « وما أنت بمؤمن لنا » ويعدى بالباء نحو « أن تؤمن بالله » .

(١) رواه مسلم .

والايمان شرعا يؤخذ من حديث رسول الله ﷺ والذي جاء به أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ قائلا : أخبرنى عن الايمان ؟ قال :

« أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت •

فالايمن هو أن يؤمن الانسان بالله ربا واحدا معبودا لا شريك معه ، ولا صاحبة له ولا ولد » •

قال تعالى :

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وبملائكة الله المطهرين الذين أخرجنا الله عنهم في كتابه العزيز مع أننا لم نرهم والذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون •

وبكتب الله وصحفه المنزلة على رسله الكرام ، كصحف ابراهيم وموسى التوراة ، والزبور ، والانجيل ، والقرآن الكريم ، وبرسل الله الكرام منذ آدم وحتى خاتمهم محمد ﷺ « لا نفرق بين أحد من رسله » بل نقول : « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » (البقرة آية ٢٨٥)

وباليوم الآخر - أى بالبعث وما بعده من حشر وحساب وثواب فى جنات وعقاب فى النيران « كل نفس بما كسبت رهينه الا أصحاب اليمين فى جنات يتساعلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر • قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى آتانا اليقين » (المدثر آيات ٣٨ - ٤٧)

ويلاحظ أننى قلت فى تعريف الاسلام والايمان شرعا ولم أقل اصطلاحا لأننى فى الحقيقة تركت التعريفات الكثيرة لأستاذتى من العلماء الأجلاء وهى التعريفات الاصطلاحية لأن الذى يعينى هنا تعريف الاسلام وتعريف الايمان كما جاء فى الحديث الشريف للرسول ﷺ لأنه عليه السلام لا ينطق عن الهوى

وبقدر الله وما يأتى به من خير أو شر - من وجهة نظرنا نحن - ولكن قد يكون الأمر عند الله تعالى على عكس ما فهمنا تماما ، وذلك مصداقا لقوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (البقرة آية ٢١٦)

هذا هو الايمان الذى هو فى الأصل فطرة الانسان ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ٠٠ » الحديث رواه الشيخان

فهذا - أى كون الخلق على فطرة الاسلام - أمرأاده الله عز وجل منذ الازل « اذا استخرج من بنى آدم ذريتهم بطنا اثر بطن وخلقهم على فطرة الاسلام ، بما أودع فى قلوبهم من غريزة الايمان اليقينى بأن كل فعل لابد له من فاعل ، وأن فوق كل العوالم القائمة على الأسباب والمسببات : سلطانا أعلى على جميع الكائنات هو المستحق للعبادة وحده ، وأشهد كل واحد من هؤلاء الذرية الحادثة جيلا بعد جيل على نفسه بما أودعه غريزته واستعداده قائلا لهم قول ارادة وتكوين لا قول وحى وتبليغ : ألت بربكم ؟ قالوا بلسان الحال لا بلسان المقال : بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة » (٤) ٠

وقد جاء ذلك فى قوله تعالى « واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألت بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ٠ أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك فصل الآيات ولعلمهم يرجعون » (الأعراف آيات ١٧٢ ، ١٧٤)

والذى يتضح من هذه الشهادة النابعة من فطرة الانسان النقية السليمة أنها - أى الشهادة المذكورة تمت وكانت بأمر الخالق سبحانه ، حتى لا يقول أحد فى يوم القيامة انى كنت غافلا ولا علم عندى بربوبيتك لى يا خالقى ٠ وأيضا حتى لا يقول أحد أن الذى أشرك بك ياربى هو أبى وأنا جئت ذرية له من بعده وهو لم يخبرنى بربوبيتك ، أفتهلكنى بما فعل أبى وهو على الباطل ؟

وبذلك يكون الخالق جل وعلا قد فصل آياته للناس لعلهم الى ربهم يرجعون فيطيعونه وينفذون تعاليمه لأن المصير اليه سبحانه وتعالى ، ولا مفر من لقائه والعرض عليه في يوم الحساب ان شاء الله .

قال تعالى :

« ان كل من فى السموات والأرض الا أتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ١ وكلهم آتية يوم القيامة فردا » (مريم آيات ٩٣ ، ٩٥)

فكلما ابتعد الانسان عن الايمان الصادق ، كان مائلا عن فطرته النقية السليمة ، وناقضا لعهد ربه عليه ولذلك نجد أن الله عز وجل يخاطب رسوله محمد ﷺ فى الكتاب العزيز قائلا له « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم آية ٣٠)

فالحق سبحانه وتعالى يريد من رسوله ﷺ أن يقوم وجهه وأن يستمر على دين الحق وهو الحنفية السمحاء التى هداه الله اليها وأكملها له وارتضاها وأتم بها نعمته على رسوله عليه السلام .

قال تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » (المائدة آية ٣)

والرسول بذلك يكون قد لازم فطرته السليمة التى فطره ربه عليها ، ولما كان الرسول ﷺ هو قدوتنا (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) (الأحزاب آية ٢١)

كان لازماً علينا أن نتأسى به عليه السلام فنلزم فطرتنا السليمة ولا نخرج عنها أبدا حتى لا تستخف بنا الشياطين فنكون من الضالين .

فقد جاء في الحديث القدسي - يقول الله تعالى : « انى خلقت عبادى
حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم (١) عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت
لهم » (رواه مسلم)

وشاعت ارادة الخالق سبحانه أن لا يجبر الناس وهم خلقه على التزام
الدين الحق والايمان به بعد أن خلقهم جل شأنه على الفطرة النقية الطاهرة
وانما ترك شأنه مشيئتهم حرة فى الاختيار بمقتضى الموهبة العظيمة
التي وهبها اياهم وهى العقل السليم فكل نفس « لها ما كسبت وعليها
ما اكتسبت » .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « كل
مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه ، فاذا عبر عنه لسانه ، اما
شاكرا واما كفورا » (رواه أحمد)

فالفطرة هى منبع الايمان متى سلمت مما يطمسها أو يطفىء نورها
كالتهويد والتنصير والتمجيس وما شابه ذلك .

والله سبحانه لفت أنظارنا الى ما يقوى فينا الايمان ويزيده فى قلوبنا ،
وذلك عندما دعانا الى التأمل فى كتاب الكون المفتوح وأعمال العقل فيه
فقال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر
عن قوم لا يؤمنون » (يونس آية ١٠١)

غير أنه جل شأنه كشف لنا حقيقة من لا يؤمن ، وهى أنه مهما يشاهد
من آيات الله فى الكون ومهما تأتته النذر الربانية فانه مصر على عدم الاعتراف
بالخالق سبحانه ، لانه والعياذ بالله مختوم على قلبه فهو من أهل الجحيم .

(١) أى استخفثهم

وإذا كان الكون هو كتاب الله المفتوح للنظر والتأمل فإن القرآن الكريم كتاب الله المقروء والمتعبد به فيه من الحقائق ما أثبتتها العلم التجريبي ، واعترف بذلك المنصفون من العلماء فمثلا قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (الذاريات آية ٤٩)

أثبت العلم التجريبي أن جميع المخلوقات متزاوجة ، ويستحيل بقاء جنس من أجناسها الا بواسطة التزاوج واللقاح بين الذكورة والأنوثة .

أما الانسان والحيوان والطيور والحشرات ونحوها فذلك واضح بين لا يحتاج الى دليل لكن ان تعجب لشيء فاعجب معى لهذه الصورة البديعة من صور اللقاح الذى يتم بين الأزهار عن طريق الحشرات . فقد جاء فى كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » (١) ما يلى :

ان هناك كثيرا من الأزهار تسجن الحشرات داخلها ، ومن أمثلتها الزهرة المسماة « جاك فى المقصورة » ولهذا النبات نوعا من المجموعات الزهرية ذكورا واناثا ، وهى تتكون داخل مقصورات تضيق عند منتصفها ويتم التلقيح بواسطة ذبابة دقيقة تدخل الى المقصورة ، ولا تكاد تجتاز المنطقة الضيقة الوسطى حتى تجد نفسها سجينة ليس بسبب الضيق فى مقصورة الزهرة فحسب بل بسبب تغطية الجدران الداخلية بمادة شمعية منزقة يتعذر معها على الحشرة أن تثبت أقدامها ، وعندئذ تدور الحشرة بصورة جنونية داخل المكان ، فتعلق هبوات اللقاح بجسمها ، وبعد قليل تنصلب جوانب المقصورة بعض الشيء فتستطيع الحشرة الخروج بعد أن يكون جسمها قد تغطى بهبوات اللقاح ، فاذا زارت مقصورة مذكرة أخرى تكررت نفس العملية السابقة .

(١) تأليف علماء أمريكيين ترجمة د. الدمرداش سرحان ومراجعة د. محمد جمال الدين الفندى .

أما اذا دخلت مقصورة أنثى فانها تسجن في داخلها سجنًا دائمًا حتى تموت هي ، وعند محاولتها اليأس للخرج تقوم بتلقيح الأزهار الأنثى .
ان النبات في هذه الحالة لا يهتم بخروج الحشرة لأنها تكون قد أدت رسالتها ، أما عند زيارتها للمقصورات المذكرة فانه يسمح لها بالخروج لأنها لا تكون قد أدت رسالتها .

أفلا تدل هذه الشواهد على وجود الله ، انه من الصعب على عقولنا أن نتصور أن كل هذا التوافق العجيب قد تم بمحض المصادفة ، انه لا بد أن يكون نتيجة توجيه محكم احتاج الى قدرة وتدبير (١) .

الايمان الحق اذا تمكن في قلب المؤمن ، جعله في منزلة سامية لا يرقى اليها الا المخلصون .

أنظر الى قوله تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلتين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » .
(الزمر آية ٢٣)

قال ابن كثير - رحمه الله - « هذه صفة الابرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الجبار لما يفهمون من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية ثم تلتين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه » .

قال عبد الرزاق : حدثنا معمر قال : تلا قتادة رحمه الله قول الله تعالى

« تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلتين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » قال ، هذا نعت أولياء الله نعتهم الله عز وجل بأن تقشعر جلودهم

(١) المرجع السابق ص ٤٨ ، ٤٩

وتبكى عيونهم وتطمئن قلوبهم الى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم ، انما هذا من أهل البدع وهذا من الشيطان (١) .

والمؤمن دائما يلتزم بمنهج ربه وهو الاسلام في كل أحواله ، ويرى فيه الكمال والوفاء بكل ما يحتاجه في دنياه ، ويسعده في آخره ، وهو في مسيرته في الحياة لا يغفل أبدا عن خالقه جل وعلا ، ولا يميل عن الحق ، ولا يسلك طريق الجاهلين ، لأن قوة الايمان تفيض على نفسه الاطمئنان ، وتدفعه الى طريق الهداية ، وتجعله مقبلا عليه معترضا به ، لا يحيد عنه أبدا ولا يقصر فيه ، يحب الخير لكل مسلم ويشد من أزره ، ولا يخذله في أمر من الأمور التي تنقص من قدره أو تنال من كرامته ، لانه تأدب بمثل ما رواه جابر وأبو طلحة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « ما من مسلم يخذل أمرا مسلما في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه الا خذله الله في موطن يجب فيه نصرته » (٢) .

كما أن المؤمن صاحب كلمة حق يقولها خالصة لوجه ربه ، ولا يخشى في ذلك لومة لائم ولا يرضى لنفسه أبدا موقفا أقل من ذلك الموقف . لانه في فعله هذا متأدبا بمثل ما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحقرن أحدكم نفسه » قالوا يارسول وكيف يحقر أحدنا نفسه قال « يرى أن عليه مقالا ، ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس فيقول : فايأى كنت أحق أن تخشى » (٣) .

والمؤمن في سبيل الحق يضحي بنفسه وبماله ، وهذا هو ما ربه عليه الرسول ﷺ أصحابه فكانوا بحق كما وصفهم ربهم العليم بما في قلوبهم ، فقال سبحانه « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » (الأحزاب آية ٢٣)

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥١

(٢) رواه أبو داود - الترغيب ج ٣ ص ١٣

(٣) رواه ابن ماجه - الترغيب ج ٣ ص ٢٢٧

وفي سبيل الله يهون عليهم كل شيء فهذا أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة لما أمر الرسول ﷺ بالقاء أسرى المشركين في القليب يوم بدر ، أخذ عتبة بن ربيعة والد أبي حذيفة فسحب في القليب ، فنظر رسول الله ﷺ في وجه أبي حذيفة رضى الله عنه فاذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال : يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيرا (١) .

والايمان أمر قلبى لا يطلع على حقيقته الا عالم الغيب والشهادة ولذلك وضح الله حقيقة مقولة الأعراب وصحها عندما قالوا للرسول ﷺ « آمنا » ؟ صحح الله هذا القول في قوله تعالى لخير خلقه صلوات الله عليه وسلامه « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم » (الحجرات آية ١٤)

ونحن وان كنا لا نعلم الغيب ولا اطلاع لنا على قلوب الخلق ، الا أننا يمكن أن نعرف أهل الايمان بسلوكهم في هذه الحياة وذلك عن طريق موهبة الله العظيمة وهى العقل فأهل الايمان دائما صادقون لا يعرف الكذب طريقا الى السنتهم ، لأنهم تربوا على مثل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » (الأحزاب آية ٧٠)

قال عكرمة رضى الله عنه : القول السديد : لا اله الا الله .
وقال غيره رضى الله عنه : القول السديد : الصدق .

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٢٩٤

وقال مجاهد رحمه الله - هو السداد .

وقال غيره رحمه الله - هو الصواب .

قال ابن كثير رضى الله عنه : والكل حق (١)

وتربوا أيضا على مثل ما رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :
قال رسول الله ﷺ « عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر والبر يهدى
الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله
صديقا . وإياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور ، والفجور يهدى الى
النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله
كذابا » (٢) .

وأهل الايمان دائما أمناء لا تعرف الخيانة سبيلها الى نفوسهم لأنهم
عرفوا عظم الأمانة من قوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السموات
والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان
ظلوما جهولا »
(الأحزاب آية ٧٢)

قال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود ، وقال مالك عن زيد
بن أسلم انها التكليف وقبل الأوامر والنواهي بشرطها وهو أنه ان قام بذلك
أثيب وان تركها عوقب فقبلها الانسان على ضعفه وجهله وظلمه الا من وفق
الله والله المستعان (٣) .

وهم أيضا أمناء لأنهم عملوا بما رواه الحسن عن سمرة أن رسول الله
ﷺ قال « أد الأمانة الى من أئتمنك ولا تخن من خانك » رواه أحمد وأهل
السنن ومن المعلوم لنا جميعا أن نبينا ﷺ اشتهر قبل مبعثه بالصدق وبالأمانة
فكان يلقب بالصادق الأمين .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٢١

(٢) رواه الشيخان - الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٥٩١

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٢٢

والمؤمنون أصحاب معاملة حسنة لأنهم عملوا بمثل قوله تعالى :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم »
(فصلت آية ٣٤)

وبمثل ما رواه عقبه بن عامر رضى الله عنه قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده ، فقلت يا رسول الله : أخبرنى بفواضل الأعمال فقال :

« يا عقبه صل من قطعك وأعط من حرملك وأعرض عن ظلمك »
(رواه أحمد)

والمؤمنون أقوياء فى الحق على أهل الكفر والضلال ، رحماء فيما بينهم لأنهم عرفوا ذلك من قوله تعالى « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »
(الفتح آية ٢٩)

وعرفوه أيضا مما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال :

قال : قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » وفى كل خير أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل فإن لم تفتح عمل الشيطان »
(رواه مسلم)

وأهل الايمان أعزة بالله سبحانه ، لأنهم استمدوا عزتهم من مثل قوله تعالى : « والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »
(المنافقون آية ٨)

وقوله تعالى « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين »
(آل عمران آية ١٣٩)

ثالثاً : قضية التكفير

بعد العرض السابق والموجز عن الاسلام والايمان نتحدث عن قضية التكفير من وجهة النظر الاسلامية . فنقول وبالله التوفيق :

أولاً : ما هو الكفر ؟

الكفر لغة ضد الايمان وقد كفر بالله من باب نصر وجمع الكافر كفار وكفره وكفار بالكسر مخففا كجائع وجياع ونائم ونيام ، وجمع الكافرة كواف والكفر أيضاً جحود النعمة وهو ضد الشكر .

والكفر شرعاً :

يعرف من كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ ، فنحن المسلمون لا ينبغي أن نكفر الا من كفره الله عز وجل والرسول ﷺ .

١ - فقد أخبرنا الله سبحانه في كتابه العزيز أن كل من لم يؤمن بالله الواحد ورسوله محمد ﷺ كافر . قال تعالى « استغفر لهم أولاً تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة آية ٨٠)

٢ - وأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين جعلوا لله ولداً أو زعموا أن الله ثالث ثلاثة أو أنه المسيح ابن مريم . الخ ما زعموه وحرفوه في كتبهم وغيره كفار .

قال تعالى :

« وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » (التوبة آية ٣٠)

وقال تعالى « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم
قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه
ومن في الأرض جميعا والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق
ما يشاء والله على كل شيء قدير »
(المائدة آية ١٧)

وقال تعالى « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله
الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب
الليم »
(المائدة آية ٧٣)

٣ - وأن من ينكر الرسل أو بعضهم كافر .

قال تعالى « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا
بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا
بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا
مهينا »
(النساء آية ١٥٠)

٤ - ومن يعادى الله أو ملائكته أو رسله أو بعضهم وكذلك من ينكر وجود
الملائكة كافر .

قال تعالى « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال
فان الله عدو للكافرين »
(البقرة آية ٩٨)

٥ - ومنكر البعث والحشر والجنة والنار والثواب والعقاب كافر لأنها أمور
علمت من الدين بالضرورة وجاءت بها النصوص القرآنية الصريحة

قال تعالى « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في
الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون »
(الزمر آية ٣٩)

وقال تعالى « وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم
القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك
حسبا »
(الاسراء آيات ١٣ ، ١٤)

وقال تعالى « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبيغون عنها حولا »
(الكهف آيات ١٠٦ ، ١٠٧)

وقال تعالى « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين »
(البقرة آية ٢٤)

٦ - ومنكر كتب الله وصحفه المنزلة على رسله كافر .

قال تعالى : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »
(النساء آية ١٣٦)

٧ - ومنكر القدر خيره وشره كافر .

قال تعالى : « انا كل شيء خلقنا بقدر » (القمر آية ٤٩)
وقال جل شأنه « وخلق كل شيء فقدره تقديرا »

(الفرقان آية ٢)

٨ - ومن لم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله كافر .

٩ - ومنكر الصلاة أو التارك لها جحودا كافر .

١٠ - ومنكر الزكاة أو مانعها متى وجبت عنده جحودا لفرضيتها كافر .

١١ - ومنكر صيام شهر رمضان كافر .

١٢ - ومنكر الحج الى البيت الحرام كافر .

والخلاصة : أن كل من ينكر القرآن أو بعض ما جاء به وكذلك سنة رسول ﷺ أو بعض ما جاء بها من أحاديث صحيحة فهو كافر .

كل ذلك معلوم لنا بالضرورة .

ولكن هناك سؤال يطرح نفسه الآن وفي ظروفنا الراهنة وهذا السؤال هو هل المعصية تكفر صاحبها اذا كان مسلما ثم ارتكبها ؟

والاجابة على هذا السؤال هو أن مرتكب المعصية ليس كافراً وان زنى
وان سرق ما دام يشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله .

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ما معناه :
من قال لا اله الا الله دخل الجنة » فقال أبو ذر رضى الله عنه وان زنى وان
سرق قال عليه الصلاة والسلام « وان زنى وان سرق » وتكرر السؤال والجواب
حتى قال عليه السلام « وان زنى وان سرق رغم أنف أبى ذر » .

والقول بأن هذه الامة كافرة لأنها تحكم بغير حكم الله ، وقد .

قال تعالى « ومن لم يحكم بها أنزل الله فأولئك هم الكافرون »
(المائدة آية ٤٩)
قول خاطيء ، لأننا لى نفهم هذا النص الكريم فان علينا أن نبدأ
الموضوع من أوله ، فقد قال تعالى :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا
أما بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون
لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان أوتيتهم
هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من
الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم
فى الآخرة عذاب عظيم » .

سماعون للكذب أكالون للسحت فان جاعوك فاحكم بينهم أو أعرض
عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط
ان الله يحب المقسطين .

وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد
ذلك وما أولئك بالمؤمنين انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون
الذين أسلموا للذين هادوا والربانييون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله

وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا
ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف
والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن
لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة
وأتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى
وموعظة للمتقين .

وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله
فأولئك هم الفاسقون وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من
الكتاب ومهيما عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك
من الحق لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة
ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله ومرجعكم جميعا فينبئكم
بما كنتم فيه تختلفون وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم
واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد
الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون .

أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون
(المائدة آيات ٤١ - ٥٠)

فهذه الآيات يطلب المولى عز وجل فيها من رسوله محمد ﷺ ألا يحزن
من فريقين من الناس .

الفريق الأول :

من غير اليهود وهم الذين قالوا آمنا بالسنتهم فقط ولكنهم لم يؤمنوا
بقلوبهم ولعل هؤلاء أو بعضهم من الذين قالوا لبعضهم البعض « آمنوا بالذى
أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون »
(آل عمران آية ٧٢)

الفريق الثانى :

هم اليهود وقد وصفهم الله عز وجل بأنهم سماعون للكذب وسماعون أيضا لقوم غيرهم من اليهود لم يأتوا الى الرسول عليه السلام .

وهؤلاء الذين لم يأتوا الى الرسول يحرفون الكلم من بعد مواضعه ولعلمهم من الاحبار الذين يقولون للذين جاءوا الى رسول الله ولعلمهم من علمه اليهود - ان حكم لكم محمد بما تريدون فخذوا حكمه والا فاحذروا أن تأخذوا بحكمه . وهؤلاء السماعون للكذب من احبارهم أكلون للسحت من ربا وغيره فان جاءوا اليك يا محمد فأنت مخير بين الحكم بينهم وبين الاعراض عنهم وليس عليك شئ لو أعرضت عنهم ولكن ان حكمت بينهم فاحكم بالعدل لأن ربك سبحانه يحب العدلين .

ولما كان الحكم فى قضية رجم الزانى موجودا عندهم فى التوراة الصحيحة ، ولكن الاحبار يغالطون ولا يريدون الحكم بالرجم مع أنه موجود عندهم فقد وضع الله نواياهم بقوله تعالى « وكيف يحكمونك أى فى مسألة رجم الزانى - وعندهم هذا الحكم موجود فى التوراة الصحيحة كما هو موجود عندك فى القرآن الكريم ولكنهم أعرضوا عما عندهم مع التوراة الصحيحة أنا أنزلناها فيها الهدى والنور لكى يحكم بها الانبياء لليهود ويحكم بها أيضا الربانيون والاحبار بما استخفوا من كتاب الله ومن لم يحكم منهم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

وايضا يا محمد التوراة ليس فيها حكم الرجم للزانى وللزانية فقط ولكن فيها أيضا القصص مكتوب على اليهود النفس بالنفس والعين بالعين . والجروح أيضا فيها القصص ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون

ولما جاء عيسى بن مريم أعطيناه الانجيل مصدقا لما فى التوراة وفيه أيضا هدى ونور وطلبنا من النصارى أيضا الحكم بما فى الانجيل ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون .

وأنت يا محمد أنزلنا عليك القرآن لتحكم بين الناس بما فيه لئنه
مصدق لما في التوراة الصحيحة ولما في الإنجيل الصحيح فاحكم بما أنزل الله
بين الخلق واحذر يا محمد أن يفتنك هؤلاء عن بعض ما أنزل الله اليك -
أى فى مسألة الرجم أو غيرها فان أعرضوا فاعلم أن الله يريد أن يصيبهم ببعض
ذنوبهم « وان كثيرا من الناس لفاسقون » •

انهم يريدون حكم الجاهلية ولكن هل هناك أفضل من حكم الله لقوم
يوقنون ؟

الآيات كما نرى نزلت فى شأن اليهود الذين جاءوا الى الرسول ﷺ
لعلهم يجدون عنده حكما يخفف الرجم عن بعض زناهم فلما حكم الرسول
بينهم بالرجم أنكروه ففضح الله أمرهم •

قال القرطبي : الآية ومثيلتها نزلت كلها فى الكفار ثبت ذلك فى صحيح
مسلم فى حديث البراء ثم قال وعلى هذا معظم أهل العلم أما المسلم فلا يكفر
وان ارتكب الكبيرة •

والذين أخذوا بمبدأ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بعضهم
حمل الآيات على من حكم بغير ما أنزل الله كراهة لحكم الله واستنكارا له
وايثارا لغيره عليه •

ونسب هذا الى ابن عباس ومجاهد •
وقال به ابن مسعود رضى الله عنهما •

ويميل الشعبى الى أن الآيات فى اليهود خاصة واختاره النحاس -
قال : ويدل على ذلك ثلاثة أشياء :

١ - أن اليهود قد ذكروا قبل هذا فى قوله تعالى « للذين هادوا » فعاد
الضمير عليهم ألا ترى أن بعده « وكتبنا عليهم فيها » فهذا الضمير
 لليهود باجماع •

٢ - اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص - فالمعنى على هذا .

٣ - اليهود هم الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

وبعض العلماء حمل الآية على التغليظ . قال طاووس وغيره : وليس بكفر يتقل عن الملة ولكنه كفر دون كفر وهو الذى يعبر عنه بالفسق فأمره الى الله تعالى ان شاء عذبه وان شاء غفر له .

واحتجت الخوارج بالآية على أن الفاسق كافر غير مؤمن وقد أخطأوا في هذا الزعم ، فان المعصية لا تكفر صاحبها ، بدليل قوله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلتا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » (الحجرات آية ٩)

فقد أثبتت الآية الايمان للبغاة مع أنهم فسقوا بخروجهم على الامام وقتالهم له .

ولما كان الايمان هو التصديق القلبى فلا تسلبه المعصية مع بقاء اليقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وحلوه ومره .

وقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن تكفير من أعلن اسلامه فى قوله تعالى

« ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة

(النساء آية ٩٤)

الدنيا »

فقد نزلت فى رجل من بنى ضمرة يدعى مرداس بن نهيك الذى كان معه أغنام له وجمل أحمر فأوى الى كهف فى جبل واتبعه أسامة بن زيد قائد سرية رسول الله ﷺ الى بنى ضمرة . فلما بلغ مرداس الكهف وضع غنمه فيه ثم أقبل على أسامة ومن معه فقال لهم « السلام عليكم » أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فشد عليه أسامة فقتله . من أجل جملة وغنيماته ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رفع رأسه الى أسامة معاتبا ولائما وقال له

« كيف أنت ولا اله الا الله » ؟ فقال يا رسول انما قالها متعوذا يتعوذ بها من القتل . فقال عليه الصلاة والسلام « هلا شققت عن قلبه فنظرت اليه » ثم نزلت الآية .

وأیضا فان من ينطق بالشهادتين يعصم دمه وماله الا بحق الاسلام .

فقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله » .

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الاسلام يثبت بالنطق بالشهادتين والاستسلام بأدائها وصاحبها يعامل معاملة المسلمين .

ولا يحل اتهامه بالكفر باطنا فان القلوب بيد الله وحساب الخلق عند الله على نواياهم واذا كان الاسلام يحرم تكفير من نطق بالشهادة وينهى عن أن يقال له : لست مؤمنا فما بالكم بمن نشأ مسلما ومؤديا للشعائر الاسلامية ؟ مثل هذا لا يحل تكفيره بارتكابه معصية من المعاصي ، ولا بتعامله في قضاياها بالاحكام الوضعية وهو كاره لها راغب في أن تعدل وفقا لشريعة الله ، وسيتم ذلك ان شاء الله تعالى .

والدولة تطبق تعاليم الاسلام في الصلاة والزكاة والصيام والحج والأخلاق وتحريم الرذائل ولم يبق الا اقامة الحدود ، ولكن لا تقطع يد سارق رغيف ليأكله وهو جائع - فالحدود واجبة التطبيق متى توافرت شروطها والذي يحدد التطبيق القاضي والحاكم .

وعدم تطبيق الحدود ان كان عن انكار أو استخفاف فهو كفر وان كان عن غير انكار للحدود ولكن عن عذر للحاكم مثلا فليس بكفر .
والله ولى التوفيق ،